مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ١٩٧٢/٧/١٤

بصراحة يكتبها محمد حسنين هيكل

[٥] حـــالة اللا ســـلم واللا حـــرب

الطاولة...والشطرنج

تتردد فى سمعى احيـــانا ، اصداء عبارة سمعتها منذ عدة شهور فى لندن، التقطتهاذاكرتى فيما يبدو وسط حديث طويل ، ثم احتفظت بهـــا طافيـــة فوق التفكير احيانا ، غاطسة تحتـــه فى احيان اخرى ــ لـــكنها كماأتبين الآن لم تذهب مع النسيان اطلاقا !

يومها كنت فى احد النوادى العتيقة فى العاصمة البريطانية ضيف غداء على صـــديق عزيز هو فى نفس الوقت واحـــد من المع نجوم الاستراتيجية والحرب فى عصرنا ، ثم ان تجربتـــه الواسعة والعميقة أتاحت له ان يتصل عن قرب بمسرح الحوادث فى الشرق الاوســـط وان يظل متابعا للمجرى العام للتطورات عليه .

وكان الحديث قد امتد بنـــا ساعات طويلة ...ست ساعات تقريبا .

وفى نهاية الحديث ، جاءت عبارته التى اعنيها والتى قلت انها لم تذهب مع النسيان اطلاقا من ذاكرتى .

قال لى مع رشفة اخيرة من فنجان القهوة التاسع او العاشر فى جلستنا الطويلة تلك .. **قال :**

ــ هل تعرف ؟ ... اننى فكرت وافكر طويلا فى الصراع العربى ــ الاسرائيلى ...واكاد اصل الى اقتناع مؤداه ان اللعبة السياســـية التى تجـــرى بينكم وبينهم هناك هى اغرب الالعاب فى السياسة الدولية المعاصرة.

انها ليست لعبة واحدة ...بل هى فى الحقيقة لعبتان .

انتم تلعبون لعبـــة ... وهم يلعبون غيرها .

انتم ــ العرب واسرائيل ــ امام بعضكم فى صراع ، ولـــكن الغريب ان كل طرف يلعب لعبة مختلفة .

اذا اردتنى ان اشبه بالعاب الشرق ـ اذن فانتم امامهم تلعبون الطاولة ـ النرد ـ ولكنهم امامكم يلعبون الشطرنج.
وذلك هو صميم المأساة فى صراع الشرق الاوسط .
لعبتكم السياسية : طاولة .
ولعبتهم السياسية : شطرنج
ومع ذلك : فانتم وهم على ناحيتى لعبة سياسية واحدة... صراع واحد .

● ولعبة الطاولة تحتاج الى براعة ، ولكنها فى الاساس تعتمد على ضربة حظ يتمناها اللاعب وقد تقع له او لاتقع .
ولعبة الشطرنج مسألة اخرى تماما : اساسها قانون للعبة ، وحساب ، ثم حركة .

● فى تصرفاتكم باستمرار ، انتظار واعتماد على ذلك المجهول الغامض ، ضربة الحظ التى تقع او لاتقع ، وبعدها تسعدون او تحزنون ... يتوقف الامر على مهارة اللاعب او خيبته ... على يمن طالعه او نحس ذلك الطالع .
وفى تصرفاتهم باستمرار لايوجد شىء من ذلك : الشىء الوحيد الموجود هو قانون اللعبة ، والحساب ، والحركة .

لن تهزموهم اذا استمرت لعبتكم السياسية أمامهم : طاولة .

وقد تهزمونهم اذا تحولت لعبتكم السياسية امامهم الى : شطرنج !

ولعلكم لاتنسون انه برغم كل التطورات فى علوم الحرب ،فان الشطرنج هو السلف الصالح للاستراتيجية العصرية !! » .

كثيرا ماتذكرت هذه العبارة منذ سمعتها ...

كانت تصويرا قريب الشبه من اسلوبنا فى ادارة صراعنامع العدو فى معظم الاحيان !

وتحفظت « بأنه قريب الشبه » وتحفظت « بمعظم الاحيان » لأننا فى بعض تجاربنا استطعنا ـ وبامتياز ـ أن نلعب لعبة القانون والحساب والحركة ، وتركنا لعبة ضربة الحظ التى تقع أو لا تقع !

□

وربما الحت على هذه العبارة الآن ، فكتبتها بعد شهور طويلة من سماعها فى لندن ـ لاسباب واضحة :

● فى حالة السلام فان لعبة القانون والحساب والحركة مهمة .

● وفى حالة الحرب فان لعبة القانون والحساب والحركة اهم .

● وأما فى حالة ـ او جريمة ـ اللاسلم واللاحرب فان لعبة القانون والحساب والحركة تصبح حيوية ...تكاد تكون عاصما وحيدا لابديل له : لأن حالة السلام فرصة متاحة للتجربة والخطأ .

ولان حالة الحرب لقاء مباشر ـ ووجها لوجه ـ مع الخطر.

واما حالة اللاسلم واللاحرب فهى نزيف مستمر ، واذا تركناه بغير نهاية فهى حياة بغير أمل ... او موت بغير بطولة ، وذلك ما يستحيل علينا أن نرضى به .

□

وبعض الناس يزعجهم الحديث عن القانون والحساب والحركة،فى الصراع السياسى.

يظنون أن القانون فى الصراع السياسى : عجز .

ويظنون أن الحساب فى الصراع السياسى : انهزامية .

ويظنون أن الحركة فى الصراع السياسى : انتهازية .

واظننى اختلف معهم ، وقد يكون مناسبا أن أعطى بعض الامثلة أشرح بها وجهة نظرى ، مما نراه فى العالم حولنا .

■■■ فيما يتعلق بالقانون :

فلست واحدا من الذين يعتبرون أن قبول بريجنيف ـ مثلا ـ باستقبال نيكسون فى الكرملين بينما فيتنام الشمالية

تضرب بقسوة لم تحدث فى يوم من الايام وبينما موانيها تحت الحصار بالالغام وهو مالم يحدث فى يوم من الايام — ظاهرة عجز من جانب بريجنيف.

ان الاتحاد السوفيتى فى هذا الموقف لم يكن عاجزا ، وانما كان واعيا بالقانون الذى يحكم العلاقات الدولية فى هذه المرحلة من الصراع العالمى .

ان بريجنيف برغم الضرب الجوى والحصار البحرى استقبل نيكسون فى الكرملين واستقبله بحرارة ورفع معه كؤوس الشمبانيا المثلجة لانه كان يدرك أن ذلك هو البديل المنطقى لاستمرار التصاعد الخطر فى التوتر بين القوتين الاعظم بما يمكن أن يجرهما الى صدام مباشر معا ، وهو مالا يسمح به قانون العصر بروادعه النووية .

◀ وفيما يتعلق بالحساب :

لست واحدا من الذين يستبرون ان قبول فيتنام الشمالية — مثلا — بالعودة الى مائدة المفاوضات فى باريس — وقد عادت اليها بالفعل أمس — ظاهرة انهزامية.

ان فيتنام الشمالية أدت حساباتها بدقة ليس فقط على أرض ميدان القتال فى فيتنام نفسها ، وانما — وربما بالدرجة الاولى — على ساحة المسرح الداخلى للسياسة الامريكية .

... مع بدء انتخابات معركة الرئاسة فى الولايات المتحدة بدأت هجوم الربيع .

والذى يستوقف النظر هو ان فيتنام الشمالية رضيت بالموعد الذى اقترحه نيكسون للعودة الى مائدة المفاوضات فى باريس وهو يوم ١٣ يوليو — أمس — والذى يوافق موعد انتهاء مؤتمر الحزب الديمقراطى الذى ينعقد فى فلوريدا ليختار منافس نيكسون الديمقراطى فى الانتخابات المقبلة .

ان فيتنام الشمالية لم تشعر بأى حرج وهى تقبل هذا الموعد المقترح .

قبلته وفى حسابها انها تعطى لنيكسون نقطة فى الفوز بمدة جديدة فى رئاسة الولايات المتحدة .

كانت على استعداد — ازاء الحسابات فى مواقف القوى الاعظم — أن تعطى له نقطة فى واشنطن لكى تأخذ منه نقطة بدلها فى سايجون .

□

■■■ وفيما يتعلق بالحركة : فلقد نتذكر أننا كنا فى مراحل عديدة من صراعنا نموذجا مشهودا له فى هذا المجال .

والحركة فى السياسة ولكى يكون ما اقوله محددا : **هى الاستجابة السريعة للمتغيرات مع المحافظة دائما على المبدأ :**

● ولقد سجلت سياستنا فى عدم الانحياز — مثلا — نجاحا كبيرا وكان ذلك دليل استيعاب كامل للقدرة على الحركة .

ان سياسة عدم الانحياز ، كانت ـ وما تزال ـ موقفا سياسيا محفوفا بالمخاطر .

أسهل منها واكثر أمانا أن يقبع من يريد فى حضن واحدة من القوتين الاعظم ويصبح ذيلا أو تابعا يدور فى فلكها .

لكننا ومعظم الشعوب الحرة فى العالم النامى رفضنا ذلك الامان الذليل ورحنا نشارك فى قضايا السلم والحرب فى العالم ... فى قضايا التقدم والتخلف فى العالم... وكنا نتخذ مواقفنا فى كل قضية بغير التزام مسبق ... الا التزام المبدأ وحده .

كان ذلك جوهر سياسة عدم الانحياز .

وهو فى صميم الصميم منه: حركة ... وحركة يقظة ... وحركة دائمة .

ولقد فعلنا ذلك أيام السلام ... وفعلناه ايضا فى وسط الحرب .

● وكمثال حى فان جمال عبد الناصر بعد زيارته السرية الى الاتحاد السوفيتى فى يناير ١٩٧٠ ، وبعد أن حقق فى هذه الزيارة تواجدا عسكريا سوفيتيا على الارض المصرية ، ورفع بالتالى درجة حرارة الازمة دوليا ـ لم يتردد فى المبادرة بالحركة .

◀ فى شهر مارس سنة ١٩٧٠ كانت كتائب الصواريخ السوفيتية تصل الى مصر .

وفى شهر ابريل كان جمال عبد الناصر فى القاهرة يستقبل جوزيف سيسكو .

◀ وفى شهر يونيو سنة ١٩٧٠ كانت كتائب الصواريخ السوفيتية تتمركز فى المواقع المخصصة لها فى العمق .

وفى شهر يوليو سنة ١٩٧٠ كان جمال عبد الناصر يعطى موافقة على مشروع روجرز .

ولعلى ازعم اننا لم نكن قط قريبين من حل معقول للازمة مما كنا فى ذلك الوقت الحافل بالمتغيرات ، وبالحركة استجابة لها ـ لولا انفعالات عربية غير محسوبة ، ولولا مذابح سبتمبر فى عمان ، ولولا رحيل عبد الناصر ، ولولا انهيار الجبهة الشرقية نتيجة لذلك كله!

● وفى نموذج قريب فان انور السادات استطاع بالحركة ان يفرض عزلة دولية كاملة على اسرائيل طوال صيف وخريف سنة ١٩٧١ ، وقد فعل ذلك برغم الانفعالات العربية غير المحسوبة وبرغم مذابح سبتمبر وبرغم رحيل عبد الناصر وبرغم انهيار الجبهة الشرقية .

ومن سوء الحظ أن الموقف العربى كله ـ بامكانياته السياسية والعسكرية ـ لم يستطع ان يستغل بالقدر الكافى تلك **الحركة الواسعة** التى قام بها انور السادات ، وبالتالى ظلت ساحة الازمة خالية ... لا كلمة تسمع فيها ولا طلقة !

وهذه تجربة لابد من دراستها بعمق لكى ندرك ان **الحركة**

الحقيقية نفس طويل واساليب متنوعة .

... الحركة حوار متصل مع الحوادث والتطورات يطرح عليها ويرد عليها فى نفس الوقت ، ولكنه لا يتركها طول الوقت ، والا فان المقدمات تصبح بغير نتائج ... بل ان المقدمات قد تصبح عبئا على النتائج !

ليكن ذلك كله ... ليس هو القضية الاساسية الان واهمهمنه هو السؤال :

ـ كيف نبدا من هنا ؟ » .

وبتعبير ادق :

ـ كيف يمكن بالقانون وبالحساب وبالحركة ان نكسر حالة ـ او جريمة ـ اللاسلم واللاحرب التى تمسك بخناقنا وتوشك ان تخنقنا ؟ » .

هذا هو السؤال الذى يتطلع الى الغد ، ولا يتوقف عند الامس .

□

وربما كان ضروريا لاجابة سليمة على هذا السؤال ان نقدم عليه سؤالا آخر هو :

ـ ما الذى تفعله اسرائيل الآن والولايات المتحدة وراءها ؟ »

لقد اتفقنا على ان الصراع ـ القانون والحساب والحركة فيه ـ هو سؤال وجواب ... نطرح او نرد .

ان العدو قد طرح علينا حالة « اللاسلم واللاحرب » .

ولكى نرد فلقد يكون مفيدا ان نبحث عن قصده مما طرح علينا ! .

قصد العدو ، او مقاصده ، كما اتصور هى كما يلى :

❶ ان العدو يريد « فك مصر » واذا بدا هذا التعبير غريبا فسوف اشرح خلال الحديث الآن ما اعنيه به .

ان مصر هى الكيان الكبير والمتماسك الذى يقف على الخط الاول من المواجهة العربية ضد اسرائيل .

بل ان مصر هى الكيان الوحيد ، الكبير والمتماسك ، على الارض العربية كلها .

واذا جرى فك مصر اذن فان اسرائيل سوف تجد نفسها مطلقة اليد فى المنطقة العربية تتصرف فيها كما تشاء ـ خصوصا فى المشرق .

والمشرق هو مخزن البترول الهائل للدنيا كلها .

والصراع القادم فى العالم سوف يكون الصراع من اجل الطاقة .

والبترول هو الطاقة .

واذا اصبحت اسرائيل مطلقة اليد فى المشرق العربى فسوف تكون طرفا اساسيا فى الصراع القادم على الطاقة .

والاستراتيجية الاسرائيلية ـ والامريكية وراءها ـ تسعى الى حصر مصر داخل فكى

كماشة :

◄ موقف لايمكن احتماله من ناحية .

◄ وعجز عن تغييره من ناحية اخرى .

ومثل هذا الضغط بين فكى كماشة يمكن ان يكسر ، واذا لم يكسر بفرقعة فانه يمكن ان يفك التماسك .

لا شيء يمكن ان يفك اى كيان : انسان او شعب ، اكثر من هذا الضغط المخيف بين العنصرين : الرغبة والعجز .

مثل ذلك فى النهاية يؤدى الى انهيار فى الثقة : الثقة فى القيم التى يؤمن بها اى وطن ، الثقة بين القوى المكونة لاى مجتمع ، الثقة بالنفس .

الثقة على هذا النحو هى الاسمنت الذى يمسك باحجار البناء الوطنى ، فاذا تحللت اصبحت الاحجار كومة ولم تعد بناء !.

❷ تريد اسرائيل ان تنزع السلاح العربى الرئيسى وهو سلاح الرفض لها .

ولقد نتذكر حقيقة هامة نلمحها احيانا ولكننا لا نتوقف عندها بالقدر الكافى ربما لاننا لا نريد ان نرى !

هذه الحقيقة هى ان هناك الآن ١٥٠ الف مواطن عربى يمرون فوق جسور الاردن كل شهر ذاهبين الى اسرائيل او عائدين منها .

١٥٠ الف مواطن عربى كل شهر فى اسرائيل !.

هل نستطيع ان نستوعب جيدا — اذا توقفنا ويجب ان نتوقف طويلا عند هذا الرقم — ماهو معنى سياسة الجسور المفتوحة التى تساعد عليها الآن حالة — أو جريمة — اللاسلم واللاحرب ؟

ان هذه السياسة معناها تماما ان عملية نزع سلاح الرفض العربى لاسرائيل ، وهو أقوى من الطائرات والدبابات والمدافع تجرى الآن وتجرى بمنتهى الهدوء ... والاخطر انها تجرى وكأنها شيء عادى ... كأنها ايقاع حياة كل يوم !

اليست هذه كارثة ؟!

❸ تريد اسرائيل ان يتسلل الى الارادة العربية يوما بعد يوم — ومع استمرار حالة او جريمة اللاسلم واللاحرب — اقتناع عربى بأنهم امام عدو لايمكن أن يهزم :

- خطوط النار على السويس ممسوكة بظروف واوضاع معقدة .
- الجبهة الشرقية تعرضت للضغوط حتى تهاوت .
- المقاومة الفلسطينية طوردت وطردت من الاردن .
- المقاومة الفلسطينية مهددة فى لبنان .

اسوأ من ذلك كله ان سياسة الردع الاسرائيلية التى جربت بنجاح حتى الآن فى الاردن وسوريا ولبنان خلقت امرا واقعا بالغ الخطورة .

ونشأ عن ذلك ان هناك دولا

عربيـــة أصـــبحت ترى أن أمن خطوطهـــا هى مع اسرائيل ـــ يكمن فى أمن الخطوطالاسرائيلية القائمة نفسها .

وهـــذا نجـــده متجسدا فى جنوب لبنان الآن .

ولقد يكون لبنان معذورا فى المازق الذى يجد نفسه فيهولكنه الآن فعلا امام هذه المعادلةالتى فرضـــتها عليه ســـياسة الردع الاسرائيلية :

ـــ اذا اراد لبنان ان تـــكون خطوطه مع اسرائيـــل آمنـــة ، فعليـــه اولا أن يجعـــل خطوط اسرائيل معه هادئة » .

بمعنى آخر فان قوات عربية تحولت الآن ـــ كما نرىشاهدا فى الاردن ـــ الى بوليس خاص لحماية الخطوط الاسرائيلية ..

... هـــذا هو الثمن ... والا ؟!

● تريد اسرائيل أن تصـــل من ذلك كله الى حالة فـــوضى شاملة فى العالم العربى .

بمصر مفكوكة ، وبنزع سلاح الرفض العربى ، وبتحويلقوات عربية مسلحة الى بوليس امن لاسرائيل ـــ فان العالم العربى سوف يدخل فى ليل بلا فجر .

وقبل اســـابيع قليلة سمعت سياسيا فرنســـيا مرموقا يقول بالحرف الواحد :

ـــ هؤلاء الناس فى اسرائيل ... انهم لا يعـــرفون لأنفسهم حدا يقفون عنده ... لقد استبد بهم جنـــون العنف ، واغـــراهم ما تحقق لهم به من نجاح

انهم سوف يدفعون العـــالم العربى كله الى بعيد

انهم لن يدفعوه الى الشيوعية لأنهميعرفون انها بديل غيرمطروح على الأقل فى المستقبل المرئى

بل ربما كانوا لا يمانعون فى دفع بلد عـــربى او آخـــر الى الشيوعية

هم يعرفون ان حدوث ذلك فى اى بلد عربى، حتى ولو كانمصر، سوف يؤدى الى عزلتها عن بقية الأمة العربية ثم أنه سوف يؤدى الى ردة فعل عنيفة ضد الاتحاد السوفيتى

لعلهم لا يمانعون فى هذا ... بل لعل الولايات المتحدة ايضا لا تمانع فيه

انهم يدفعون العالم العـــربى الى ابعد

يدفعونه الى فوضى شاملة »

ذلك ما تريده اسرائيل الآن من حالة اللا سلم واللا حرب

وعلينا الآن ان نقرر وما زال فى يدنا القرار :

ـــ هل نسمح لها بما تريد ... او نحول بينها وبينه ؟ » .

□

حتى هـــذه اللحظـــة لم يتأثر ايمانى بأن القرار فى يدنا كما اننا نملك وسائل تحقيقه : بالقـــانون والحساب والحركة

وهناك شرط واحد فيما اتصور:
هـــو ان ناخذ الأمور فى ايدينـــا ونتصرف
ان الأزمة قبل اى اعتبار آخر أزمتنا نحن
والأزمة فوق اى شيء آخر تهم كل واحـــد منا فردا فردا وبغير استثناء
ولعلى اقول فى نهـــاية هـــذا الحديث :
ـــ ان الذين لا يشعرون اليوم انهم جزء من الحل ... هم اليوم جزء من المشكلة »
. . . . . .
. . . . . .
ثم تظل فى هذا الحديث الطويل عن حالة ـــ او جريمة ـــ اللاسلم واللاحرب كلمة اخيرة نردد فيها سؤال لينين الشهير :
ـــ ما العمل ؟ ! »
ولو اردت ان اســـتبق الايام لقلت بسرعة :
ـــ بالشـــطرنج .... وليس بالطاولة !! »

محمد حسنين هيكل